بسم الله الرحمن الرحيم

** التأصيل لدور الأخلاق الحسنة
في الدعوة إلى الله تعالى

إتمام مكارم الأخلاق وإشاعتها من مقاصد الدعوة إلى الله تعالى، فقد بين النبي - عليه الصلاة والسلام - أن ذلك من أهداف وغايات دعوته فقال: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" صحيح الجامع.

وهذا لأن لحسن الخلق أثرا بالغا في بناء المجتمعات وصفاء قلوب أهلها، ووجه ذلك أن أي مجتمع لا يستطيع أفراده أن يعيشوا سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، فمتى فقدت تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا، وأكل القوي منهم الضعيف، وفشا الظلم بينهم بشتى صوره وأشكاله، وحل بهم الانهيار والدمار.
وصدق شوقي إذ يقول:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم """"" فأقم عليهم مأتما وعويلا

كما أن الخلق الحسن من أسباب تعمير الديار وزيادة الأعمار فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمرن

الديار، ويزدن في الأعمار" صحيح الجامع.

وعليه اعتبر الخلق السيء من أدوإ الداء ففي أدب الدنيا والدين للماوردي - رحمه الله - قال الأحنف بن قيس - رحمه الله - : "ألا أخبركم بأدوإ الداء؟ قالوا: بلى، قال: الخلق الدني واللسان البذي".

ومما يجلي ذلك ويبينه أن نعلم أن خلق الإسلام الحياء كما في الحديث عن أنس وابن عباس - رضي الله عنهم - قالا: قال رسول الله - صلى الله عليه -: "إن لكل دين خلقا، وإن خلق الإسلام الحياء" صحيح الجامع.
فجعل النبي - صلى الله عليه و سلم - أساس الأخلاق ومردها إلى خلق الحياء.
قال المناوي - رحمه الله - : "(وإن خلق الإسلام الحياء)أي: طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه، أو مروءة هذا الدين التي بها جماله : الحياء ، فالحياء أصله من الحياة فإذا حيي القلب بالله تعالى ازداد منه حياة.. وذلك من قوة الإسلام لأن الإسلام تسليم النفس والدين وخضوعها وانقيادها، فلذلك صار الحياء خلقا للإسلام.. يعني الغالب على أهل كل دين سجية سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء لأنه متمم لمكارم الأخلاق، وإنما بعث المصطفى لإتمامها ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء" فيض القدير 508/2.

وإذا فقد الناس هذا الخلق العظيم فشت فيهم الفضائح، وعمت

القبائح، فتنهار الحضارات، ويحصل الدمار في المجتمعات.

ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال عليه الصلاة والسلام: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" رواه البخاري.

فإن "من لا يستحي لا يبالي من العار والمعاصي ما يأتي" التمهيد 236/9.

فالحياء خلق سني إذا تحلى المرء به انبعث إلى الفضائل، وأقصر عن الرذائل.
قال ابن حبان - رحمه الله -: "فالواجب على العاقل لزوم الحياء لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر" روضة العقلاء 56.

وعليه فمما يجب أن يحرص عليه الداعية إلى الله عز وجل والذي حمل هم الإصلاح تحليه بالأخلاق الحسنة الجميلة، وتخليه عن الأخلاق السافلة القبيحة وذلك لأمرين اثنين:

أولهما: لما في ذلك من الأثر البليغ على المدعوين والمجتمع الذي يعيش فيه، فقد طبع الناس على حب حسن الخلق ولو كان من الكافرين، وعلى كراهية سوء الخلق والنفور من صاحبه كائنا من كان.

فلا يجد الإنسان مدخلا لقلوب الناس ولا سبيلا للاجتماع بهم والتآلف معهم إلا بالخلق الحسن.

فإذا تحلى به الداعية أضفى شعورا من الارتياح في نفوس المدعوين، وقبولا كبيرا لدعوته وبناء قويا لمجتمعه، فكم قبلت عند الناس من دعوة باطلة لتلبيس صاحبها بنعومة ألفاظه ورفقا في أفعاله، وكم ردت من دعوة صحيحة لجفاء صاحبها وسوء خلقه! فنشأ عن ذلك فساد الأفراد والمجتمعات فإن هذه الأخيرة لا تصلح بمجرد العقيدة – مع أنها أول ما يجب الدعوة إليه وهي أهم ما يحقق الصلاح والإصلاح إذا أقيمت علما وعملا ودعوة على حقيقتها دون مجرد صورتها فتنبه -، فالقصد الحديث عن عقيدة مجردة عن الخلق الحسن، فلا بد أن يواكب العقيدة خلق كريم يربط الناس ويشد ما بينهم.

ولذلك نجد شيخ الإسلام - رحمه الله - في عقيدته الواسطية التي ضمها أمات قضايا العقيدة عند أهل السنة والجماعة يقول: "ويدعون -أي: أهل السنة- إلى مكارم الأخلاق، ويعتقدون قول النبي - صلى الله عليه وسلم - أكمل المؤمنين إيمانا أحاسنهم أخلاقا".

فإذا كانت العقيدة لبنات المجتمع فإن الخلق ملاطها.

وبعبارة أخرى فإن التوحيد والعبادة والدعوة المجردة عن الخلق لا تؤلف جماعة ولا تقيم مجتمعا سعيدا، فإذا كان الناس سينفضون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو كان فظا غليظا – وحاشاه من ذلك - فمن باب أولى أن ينفضوا عمن هو دونه، ولهذا جاء النص الشرعي محذرا المسلمين عامة والدعاة خاصة من مغبة سوء الخلق،

لما يجر من فساد على الدعوة بخاصة والمجتمع بعامة.

قال تعالى محذرا الدعاة وفي مقدمتهم سيدهم عليه الصلاة والسلام من عاقبة سوء الخلق: (وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ)

فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي هو سيد الموحدين، وسيد المتقين، والذي بلغ في تحقيق الأخلاق الحسنة القدح المعلى كما قال الله تعالى في حقه: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فكيف بغيره؟! فهل من معتبر.

أما الأمر الثاني وهو: أن تحلي الداعية إلى الله تعالى بالخلق الحسن سبب عظيم لتأييد الله له ونصره، وهذا عامل قوي وأساس في باب الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمعات كما لا يخفى على أرباب هذا الشأن، ومن الأدلة على ذلك حديث وصف خديجة - رضي الله عنها - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما أخبرها بنزول الوحي حيث قال: "لقد خشيت على نفسي، فقالت: كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا -ثم ذكرت سبب ذلك بقولها-: والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" متفق عليه.

قال النووي - رحمه الله -: "قال العلماء: معنى كلام خديجة - رضي الله عنها - أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل، وذكرت ضروبا من ذلك، وفي هذا دلالة

على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء" شرح مسلم 202/2.

ومما يبين كذلك علاقة الدعوة إلى الله بالأخلاق الحسنة: أن الدعوة إلى أصول الحسنات تستلزم سائرها وهذه قاعدة مهمة يسترشد بها الداعية إلى ترتيب الأولويات في دعوته حتى لا يستنفذ جهده في الدعوة إلى كل جزئية من الدين على حساب غيرها (1) فتأمل ولا تتعجل .

ومعنى ذلك: أن دعوة الناس إلى الأحكام الكلية وأصول الخيرات والحسنات يدفعهم إلى امتثال سائرها إن كان أمرا، والكف عن سائرها إن كانت نهيا، ومن أصول الحسنات أصول الأخلاق كالصدق والعدل...

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: "..جاء في الأثر (إن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها) لاسيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرها مثل الصدق فإنه (أصل) الخير" الفتاوي 246/15.

فتبين لنا من خلال ما قدمنا ما لمكارم الأخلاق من مكانة عظيمة ومنزلة عالية في الدين خاصة في باب الدعوة إلى الله عز وجل.

....

1- ولا يعني هذا عدم الدعوة إلى الأحكام الجزئية بل لا بد من

الدعوة إليها وحث الناس على فعلها، وإنما المراد توجيه الجهد الأكبر للدعوة إلى الكليات التي تزكوا بها النفوس وتعلوا المجتمع بسببها - أصالة - الصبغة الإسلامية.

كتبه :
أبو أويس رشيد بن أحمد الإدريسي الحسني عامله الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي .